دفاع عن محمد

بقلم غالي شكري

قصة الانسان الكبيرة ، ليست خطوطا لحياة فرد من الناس ، ولا هي عدة صفحات من كتاب لتاريخ احد الشعوب ... وانما هي لحن عظيم رددته اجيال قبلنا ، وسترده اجيال بعدنا ، ولن تكون لهذه السيمفونية خاتمة ، مهما بلغ الكائن الحي من الذروة مداها ، ومهما بالغت آلهة الحرب في وصف السعير الذري وبشاعة النهاية .

وقصة الانسان ، لم تكتبها احدى عبقريات البشر ، وانما اسهمت في صياغتها كائنات الحياة ، منذ دبت على الارض الحياة ، وستظل في ابداعها ما بقيت الحياة ، مهما اصرت المعاجم على ان الموت احدى كلمات هذه الحياة .

وقصة الانسان بسيطة ، بساطة الانسان نفسه ، خالية من كل تعقيد وتركيب . ليست في حاجة الى نظارة نقرأ بها سطورها ، بل في حاجة الى بصيرة وعية وعقل مدرك . وهي كبيرة كبيرة ، حتى لا تكاد تحددها اسوار علم الجغرافيا ، وهي صغيرة صغيرة ، حتى ان طفلا ولد اللحظة يتنفسها بصدره الواهن ، ويعيها بقلبه الضئيل .

ورغم ذلك ، فما اكثر ما تعرضت له هذه القصة من سوء الفهم والتقدير وما افدح ما اصابها من عنت وخذلان . لان غمامات من الشر ظللت سماءها لحظات ، او ان ماء آسنا ركد في محيطها هنيهات .. فذابت معالم القصة العظيمة في نيران قاسية او بهتت ملامحها في طوفان لا يرحم.

الا ان الانسان الكبير لا تعوقه ملمات الحياة ، ومن ثم فلا خوف على قصته من النهاية والضياع . اذ هي تمضي به من نصرة الى نصرة ، وتحقق له فوزا بعد فوز. لا تزيدها العواقب والصعاب ، الا اصرار فوق اصرار .

*

وفي كتاب جديد ، قرأت سطرا مضيئا في هذه القصة الشامخة . سطر هو الى « الكتاب » اشبه ، ولكنه الى « الكلمة » ادق معنى ، وانقى تعبيرا . لم ار في هذا الكتاب مؤلفا ولا معلما ، وانما عثرت عى صفحة منيرة من قصة كبيرة اسمهاالانسان.

وانت حين تقرأ معي « محمد الرسالة والرسول » ستحس ان كلماتي قاصرة عن المقالة ، جامدة عن التضخيم والتجسيم ، حيث انه لا مبرر للشامخات في طلب الرفعة والشموخ .

واذا طويت عشرين صفحة من الكتاب ، فانك ستلتقي ببحث موجز عن رسالة الاسلام ورسولها ، مما قد تختلف بشانه مع المؤلف او توافقه وربما اذا خالفته لن تبلغ مداي ، فاني لا ارضى تفسيرا للظواهر الاجتماعية يعزل الظاهر عن قاعدتها المادية . وهذا منهج الدكتور نظمي لوقا في تفسير اليهودية والمسيحية والاسلام ، فقد حمل الفرد اكثر مما يحتمل ، وهو ينظر الى تلك الديانات الثلاث ، فلم يدخل في اعتباره سوى الحاجات الروحية للبشر ، والسمات العبقرية في حياة الرسل . وتناسى ـ تبعا لذلك ـ ان القيم الروحية والفكرية هي تعبير حاد عن الاوضاع الاقتصادية والمعيشية والاجتماعية . وان الرسول الفرد ، ما كان ينجح في بلاغ رسالته ، لولا ان ظروفه المحيطة به قد دمغته بهذا الطابع الثوري .

واذن ، فالاختلاف بيني وبين مؤلف الكتاب هو اختلاف جذري في الاساس ، لانه اختلاف في منهج البحث .

وما يهرني حقا هو تلك الصفحات العشرون ، التي طويناها منذ قليل، فقد احتوت فصلا بعنوان « صبي في المسجد » هو وثيقة انسانية غالية .. ربما كانت يتيمة الابوين في ادبنا القديم والحديث .

وانت لن تبقى طويلا حتى تعرف ان « الصبي » هو المؤلف بعينه . ساقته ظروفه طفلا ، الى شيخ ضرير وقور ، غرس في قلبه حبا رفيعا لرسالة محمد ، وتقديرا لاداب المسلمين ، واحتراما للحضارة الانسانية حين اضاف اليها العرب رافدا جديدا .

وتمضي قصة الاسلام مع نظمي لوقا الى غايتها ، فيشب عن الطوق ابنا مخلصا للضاد ، وقلبا صادقا في الحب ، وفيا للتراث .

ولا يبهرك في القصة ان مسيحيا عانق محمدا . لان ما يستتر خلف هذا المعنى هو اعظم واجل شانا . والعمر الذي قضاه نظمي برفقة الشيخ « سيد » ، من الفة وفهم وحب .. هو صورة صغيرة لاعمار البشر جميعا . وما التعايش الانساني بين المسيحية والاسلام في هذين القلبين الا تعبير حضاري عن التعايش الانساني بين الفكريات المتصارعة في عالمنا كله .

والمثل الذي تقدمه ارض مصر الى شعوب الدنيا ـ في شخص نظمي والشيخ سيد ـ هو امتداد طبيعي لتلك الدعوة البعيدة العميقة ... دعوة التوحيد الالهي في انبعاثها من قلب ذلك الفيلسوف الثائر اخناتون. ولو تاملنا هذه الابوة المصرية الروحية القديمة ، وما تلاها من ديانات وفلسفات ، لعثرنا على حلقة تراءى لاوهامنا انها فقدت مع الزمن . والحق ان الزمن لم يصنع الا غشاوة قاتمة على عيوننا ، توارث دونها الحقيقة الباهرة . وهي ان الفلسفة الانسانية لا تفرق بين البشر ، لان وظيفة هذه الفلسفة هي التقارب والتآلف والتراحم . اما الفرقة والمباراة والتنابذ ، فانها وليدة ظروف عابرة ، وملابسات زائلة .

ذلك لان الفلسفة الانسانية تنبع من صميم الحاجة الانسانية المادية والروحية الملحة . ولم تكن حاجة الانسان يوما هي البغضاء والتنافر،

لان طبيعته البشرية ، هيأت له مكانا عليا بين سائر الدفعات والنوازع .

وواجبنا اذن ، ان ننتقي الزوان من حقول الحنطة ونحرقه كما دعا المسيح . ولا ينزع الاشواك من حديقة تاريخنا الا الدراسات الجادة الواعية ، والبحوث العلمية المستنيرة . فنجتث بها كافة الاراجيف والخزعبلات ، وكل طفيليات سامة من شأنها ان تهز الضمائر وتغمط الانسان حقه في التعرف على جوهره المضيء .

وقد عانت هذه المنطقة العربية ـ بالذات ـ هولا كثيرا . فالحروب الصليبية الاوروبية تغير عليها بحجة اسطورية واهية . ومقاوس المسيح وقبره وصليبه لم تكن في حاجة الى جيوش غازية تحميها .

ولو كان القائد الاوربي صليبيا حقيقة ، لقرأ في الانجيل ان بطرس ـ تلميذ المسيح ـ هجم في لحظة غضب على احد أعداء سيده ، وقطع بخنجره اذنه ، وعلق المسيح في حزن « يا بطرس ، أعد سلاحك الى مكانه، لان كل الذين يأخذون بالسيف ، بالسيف يؤخذون »(١) ! وفيم اذن كانت الحروب الصليبية وهي تعادي جوهر المسيحية ؟ لا شك ان طبيعة النظام الاقطاعي المزق في اوروبا ذلك الحين هو المسئول الاول عن هذه الفتوحات الاستعمارية . ولا ريب ان هذه النوايا الحقيقية قد كشفت عن انيابها الشرهة ، بعد ان انجلت المعارك عن صكوك العبودية ووثائق الهوان .

واذا اضفنا الى اللوحة بعض الرتوش الهامة ، كالغزو العربي لبلاد الاسبان .. استطعنا ان نجمع الاشعة في بؤرة واحدة ونقول ، ان هذه المنطقة قد عانت ويلات موقعها الاستراتيجي ووضعها التاريخي ، كأشق ما تكون المعاناة .

ذلك لان رواسب تلك القرون الوسطى بدأت تحفر لها في اجسادنا وارضنا ، فجوات عميقة من الكراهية والحقد . واصبح القلب البشري بئرا غائرة مليئة بالفحم الاسود .

وكلما انبت التاريخ حاكما حكيما يداوي جراح شعبنا ، اسرعت تراكمات السنين بدورها تنبت الاشواك في طريقه ، ويتراجع التاريخ ـ الى حين ـ فيلد شيطانا او شياطين ، تضيف الى الجرح الملتئم علقما يهرئه ويضرم النار في خلاياه .

وهكذا كان الاتراك والانجليز والمستبدون من المصريين والعرب ... يعرفون طريقهم الى وأد كل حركة انسانية تلعق الماضي ، وتمحو مرارة التاريخ ، وتذيب رواسب القرون .

الا ان هذا الشعب البطل ، كان لا يفتأ يقاوم ، ويبذل من نفسه ، ويسخو في العطاء .. حتى يقلب الاعراض الطارئة والظواهر الموقتة ، ولم يكن له من سلاح الا هذه الوحدة الجذرية الطبيعية ... وحدة التعدد الالهي في « مناة » و « العزى » و « اللات » (٢).. ووحدة التوحد في اخناتون ، الاب الروحي للحركات والثلاث التوحيدية الكبرى.

أما وحدة الجنس ، فرغم ان شعبنا لم يعرف الدعاوي العنصرية على مدى تاريخه ، الا انه عرف الوحدة الجنسية بعد الغزو العربي ، ونتج عن ذلك ما يعرف بالتفاعل الحضاري بين الشعوب . اي ان مصر العربية الحديثة ، اصبحت كلا واحدا ، بلا انفصام او خلخلة او اهتزاز.

وكانت هذه الوحدة الدينامية هي نواة الوحدة النفسية . والمضمون الانساني دائما في حاجة الى شكل سيكلوجي يلائمه .

فاذا كان الغزاة العرب قد رفعوا في مصر راية محمد ، والغزاة الاوروبيون قد رفعوا في القدس راية الصليب .. فان المصريين كانوا يعانون في الواقع ، نقطة التحول الرائعة في تاريخهم .

ونقاط التحول هي انصهار لمعدن الشعب في بوتقة ضيقة ، والذين يتمرسون على رؤية الذهب في روعة الانصهار ، غير الذين يشاهدون النار من بعيد .

والفصل الذي كتبه نظمي لوقا بعنوان « صبي في المسجد » هو تجسيد لا شعوري لتلك الرحلة الحاسمة في تاريخ شعبنا . وما قام به الفنان هو عملية استرجاع تاريخية لموقف شعب كامل .

فنحن مع والد الصبي عند الشيخ الضرير في دكان حلاق بمدينة السويس . ويحس الوالد القبطي المسيحي ان في سمات الشيخ المسلم شيئا غير عادي يجذبه الى التحدث معه . ورغم ان الشيخ لا يعطي دروسا في العربية ، الا انه لا يرفض طلب الرجل المسيحي ، بعد ان شكا له حصيلة المدارس المصرية في لغة بلادنا .

وهذه اللقطة الفردية الواقعية من حياة الكاتب ، تذكرنا بما كان عليه هذا الشعب من اضطراب لغوي شامل قبل الغزو العربي . فقد اختلفت اللغات المصرية ـ وقتئذ ـ من جانب ، ولم تتفق مع لغة الاحتلال من جانب اخر . وكان الاختلاف العقائدي ـ في المسيحية ـ والمعنى القهري للاحتلال ، هما القاعدة العريضة لهذا البناء الهرمي المزق، وما اعتلاه من قمة حادة هي ما اسميناه بالاضطراب اللغوي الشامل .

وما ان تم انتصار العرب على الرومان ، وتنفس المصريون الصعداء ، حتى بدأ التقارب على نحو ما ، ثم مضى التفاعل الحضاري ـ كما قلت ـ يعمل على استقرار الامور .

غير ان اللسان القبطي ، ما زالت تداعبه غصة في نطق العربية . والمحاولة العبقرية التي قدمها نظمي لوقا هي الحيلولة بين هذه الغصة واللسان المصري .

وبلغ الصبي المسيحي مع شيخه شوطا محمودا . مما أثار حفيظة الفضوليين من المجاورين للمسجد والمصلين فيه . واذا الشيخ يعرف احد هؤلاء ، يدعوه بعد العصر في حديث .ويحضر الرجل ، ويستمع الى الشيخ يناقش الصبي ويوجهه ويستوضحه « حتى اذا بلغ الموضوع غايته .. وجه الشيخ الكلام الى صاحبه الزائر قائلا ـ ص ١٤ ـ :

ـ كيف بنوك يا فلان؟

ـ بخير يا مولانا ... يقبلون الايدي

ـ تعرفني يا فلان امقت تقبيل الايدي.. اعرفت فيم ارسلت اليك ؟

فاطرق الرجل وقال :

ـ عرفت يا مولانا

ـ انصرف راشدا

ونهض الرجل محييا . وتحرى ان يصافح الصبي الصغير في مودة سابقة اشبه شيء بالاعتذار .

ورآه الفتى بعد ذلك اليوم ـ وكان ساعاتيا له دكان قريب من المسجد ـ يستقبله بالتحية التي يلقى بها الشيخ كلما مر به قادما او منصرفا ... ويكاد يلمس في صوته وايمانه هزة الخشوع »

اين الدلالة الانسانية في هذا الموقف العادي ؟

يخيل الي انها ابعد مدى من المعنى القريب لعيوننا . فالرايات الشاحبة التي حملت صلبان المسيح والسيوف العربية، لم تحجب عن بصيرة شعبنا ، ما تحتويه اضلعه من جوهر رائع .. ضائع !

---

(١) انجيل متى ص ٢٦ ـ ع ٥٢

(٢) اصنام عربية باسماء مصرية (عن احمد كمال في « مصر اصل الحضارة » لسلامه موسى ص ١٤٩)

كان هذا الجوهر مستورا خلف اردية كثيفة :

* الاضطهاد الذل من خلال احداث فردية وقعت للمصريين فور الغزو العربي .

* الحماس الديني المفرط للعقيدة الدينية ، والتقاليد الموروثة ، والعادات القديمة .(٣)

* صور الماضي القريب : في الاندلس والقدس .

هذه الغمامات القاتمة ، سودت الرؤى امام العيون ، فاختفى الجوهر الانساني الى حين . حتى اذا تم التفاعل البشري بين الناس ، وانجابت الغشاوة عن الابصار ... وضع الشعب اصابعه على نسيج الرايات المصلوبة ، فاذا بها من فتائل المادة والاستغلال والتكالب ، ولا تمت الى اهداف المسيح بصلة ما .

وعندما تحولت مصر المسيحية في خط سيرها الطبيعي الى مصر الاسلامية ، ماتت النتائج الوليدة عن التعصب المفرط المذموم . لان الحماس العاطفي للمسيحية ، لم يكن لهذه الديانة بعينها ، وانما كان للعقيدة الدينية وحسب ... فبعد ان حلت عقيدة جديدة في القلوب المؤمنة بالعقيدة القديمة ... او بمعنى ادق .. حين تطورت العقيدة في شكل جديد ، لازمها الحماس والعاطفة والتضحية جميعا .. كما كانت هذه الاثواب ملازمة للعقيدة السابقة .

وقد تولد في وعي المصري هذا المعنى الجديد الرائع ، وهو ان العقيدة الروحية ، هي جماع آرائه الخاصة بالحياةوالكون .. وبما ان هذه الحياة في تغير وتطور دائمين ، فلا بأس ان تصبح العقيدة الفكرية – وهي التعبير المباشر للتطور الاجتماعي – في تغير وتبدل وتطور . ولا عجب اذن ان يسقط التعصب من مخزن اثوابنا التقليدية . ويحل التآلف والتفاهم والحب .

وترتفع هذه المعاني السامقة في موقف الشيخ « سيد » حين دعا صديقه المتذمر – لكونه يعلم طفلا مسيحيا بينما هو يرفض الامر لاطفال المسلمين – ويخرج الصديق ، نافضا عن عينيه سحابة القرون . ويثلج صدر الصبي ان يحييه كل يوم بمثل تحية الشيخ المعلم .

وهذا هو الشيخ المسلم، لا يعزل دروس الصبيعن دروس الحياة . فاذا اقبل غلام ذات يوم سائلا عن الشيخ ، وناداه الصبي :

– الولد حضر يا مولانا .. الولد خادمك

راح المعلم يؤنب تلميذه على هذه العبارة ، لان الدهر ليس ارثا لاحد، وهذا الولد « الخادم » له اب وام كأي انسان ، لولا ان الحياة قد حالت بينه وبين اسباب العز والجاه .

وقضى الصبي ليلته يفكر : ماذا تراه كان يفعل لو ولد فقيرا ؟ اكان يطيق احدا يناديه « اقبل يا ولد .. يا خادم » . ولم يسأل نفسه بهذه الكلمات ، وانما تصورها في مخيلته .

وحين افضى الى امه بكل شيء ، ثارت على الشيخ ومحمد والاسلام ، ونقلت ثورتها الى زوجها ، فأبقى الفتى دون الدرس ، وذهب محتجا لدى الشيخ.

وتتألق هنا لحظة جديدة مشرقة في هذه العلاقة الانسانية ، اذ يتساءل الشيخ « سيد » (ص ١٩) :

– هل ترضى مني ان اخذ ولدك بغير الادب الاكمل ، والنهج الاقوم ، وان اعرف الحق واحيد به عنه ؟

– بل لا اريد ...

– وان اردت انت فلن اريد ! لان ذلك هو الغش البين . فهل تراك اخذت على الدهر ميثاقا ، وقد عجز عن ذلك الملوك والسلاطين واصحاب الملايين من قبلك ؟

– ولكن الله يا مولانا رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات ...

– ويداول الدنيا بين الناس ! ثم اما قرات في كتابك ؟ الم تجد فيه ان المسيح عليه السلام – ورايكم فيه ما تعلم ! – غسل اقدام حواريه؟ آداب الرسل ليس فيها تفاوت . وانما التفاوت عندنا حين نفرط في لباب الدين لنتعلق بزخارف الدنيا » .

هذه هي الوقفة العظيمة . يجب ان نعيها ونتدبر معانيها . والد الصبي المسيحي ، يستشهد من الاسلام بان الله رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات . فيكمل له الشيخ القول الكريم، الا انه لا ينسى ان يبادله تحية بتحية فيذكر له ان المسيح بلغ درجة رفيعة من التواضع ، وانحنى على اقدام تلاميذه وغسلها امعانا في السمو والعظمة . ثم يجسد الشيخ مأساة البشر كلها ويقول « آداب الرسل ليس فيها تفاوت ، وانما التفاوت عندنا » اجل .. فمصدر هؤلاء الرواد لا يختلف في النبع . والناس – تسامحا مع ظروفهم – هم الذين يختلفون . ولكن متى نعي اننا لا نختلف الا لنتفق ، ولا نفترق الا لنلتقي ؟

لقد اراد لنا الاستعمار الاجنبي والاستبداد الداخلي ، ان يطوقا اعناقنا بسلسلة استحكمت حلقاتها من الشعار الاسود « فرق تسد » ، فما زالوا يتمرسون على استخدام هذه المقصلة لشنق تاريخنا ، حتى التفت هذه السلسلة – بغير وعي – على اعناقهم .. وها هوذا النظام الاستغلالي يغيب ، وشمس الاستعمار تغرب ، وحرية الشعوب تعود الى اوطانها المسلوبة .

ولم تكن عملية الاستعمار غريبة على الذين درسوا طبيعة المجتمعات الاقطاعية والراسمالية . فقد ايقن هؤلاء ان الانظمة الاستغلالية تحتوي في كيانها على جرثومة انهيارها . لان اقتسام مناطق النفوذ يؤدي بطبيعته الى تناحر الدول الراسمالية فيما بينها ، في الوقت الذي تنشط خلاله القوى الوطنية وتزداد قوة . واذ تضعف قوى الاستعمار وتهن عزيمته ، يفاجأ بالصلابة الجديدة من الداخل ، ويستسلم في لفظ انفاسه الاخيرة.

ولكن العملية لاتتم بهذه البساطة . والعدو لايرفع الراية البيضاء مهما كانت الهزيمة نهايته المحتومة .

ولذا سارع الاستعمار – قبلنا ! – الى دراسة تاريخنا . وعثر على مفتاحه الذهبي في اختلافاتنا العقائدية والمذهبية . ومن ثم راح يغطي بسحب كثيفة على فروق المجتمع الطبقي ، ويشعل نار الفروق الدينية وغاب عن البسطاء منا ماتضمره الخطة الاستعمارية من تقسيم قوانا وبعثرة امكانياتنا، وتسميتنا مللا وطوائف. ومن هذه الثغرات كان الاستعمار ينفذ الى صفوفنا ، يؤلب هذا الفريق ضد الاخر ، ونسينا – وقتا ما – العدو المشترك الواحد . نسينا ان الذي رابط بخيوله في صحن الازهر هو الذي دك بقنابله « برج القيامة » (١) نسينا ان الرصاص الانجليزي لم يفرق بين الدم المسيحي او المسلم .. منذ عام ١٨٨٢ الى عام ١٩٥٦ .. في القاهرة ، والاسكندرية ، والسويس ، وبور سعيد .

نسينا هذا كله ، ولكن الدماء السخية كانت تروي تراب ارضنا ... وتاريخنا . ونمت شجرة حياتنا الحرة .. عملاقة شامخة ، ترعرعت فروعها متشابكة ، متعاونة ، متآزرة .. لا يفرق بينها استعمار ، ولا يباعد اغصانها

(٣) تبدأ السنة القبطية بيوم الشهداء (هو اليوم الذي حدثت فيه المذبحة الشهيرة بين الرومان والمصريين) .

(١) كنيسة المسيحيين الشرقيين في القدس .

استبداد .

وكان الشيخ « سيد » غصنا رائعا في الشجرة العظيمة . وكان « نظمي » فرعا صميما ملاصقا لابوته الروحية . فما حاولت الاعاصير والانواء ان تفرق بينهما وما استطاعت ..

لان الشيخ سيد لم يصبح في وجهه التاريخي فردا عظيما وحسب ،وانما كان رمزا كبيرا تآلف ـ بعمق ـ مع الرمز الكبير .. الاخر اعني نظمي لوقا . فقد سمع الصبي واعظا مسيحيا مشهورا يصف جماعة « البروتستنت» بالذئاب الخاطفة . وتصور الغلام ـ بذهنه الطفل ـ ان لهؤلاء الناس انيابا كالذئاب ، وهيئتهم تقرب بهم من الوحوش لا البشر . والتمس الفتى عند شيخه الهداية .. فماذا قال له ؟

اسمعوا ماقاله ، ورددوا كلماته معي :

ـ ان مسيح هذا الواعظ ليس مسيح الناصرة ولا مراء !..

فالمسيح الناصري يقول : احبوا اعداءكم ، وباركوا لاعنيكم !

.. اقرأ انجيلك يابني ، وافتح له بصيرتك .. واصدد عن مفسري السواء ما استطعت » (ص ٢١).

وليس شك ان هذه الذروة من الوعي ، هي قمة البناء الدرامي في حياة الشيخ الكبير وتلميذه الصغير . لقد سبق الرجل المسلم ، الواعظ المسيحي ، أميالا في طريقه الى ملكوت السماء ، فقد عاش كلمات المسيح العالية ، بينما ذاك يصف بعض البشر بانهم « ذئاب خاطفة » ! وهذا السبق الانساني ، هو التفاف رائع ـ في معناه العميق ـ بين الشيخ والصبي .. بين المسيحي والمسلم .. بين عناصر الشعب المكونة لمعدنه الاصيل ، في مجابهة العدو الاستعماري العميل .

وهكذا ـ مرة اخرى ـ لايعزل الشيخ عن تلميذه دروس الحياة . لايفصل بين اللزوميات والمعلقات وديوان الحماسة ، وبين الصراعات الدائرة في المجتمع .

ولا يغلب على منهجه الفطري الصافي ، مبدأ التجريد الصوفي . ولكنه يطبق كل حرف على حياته الفردية الخاصة .

ويكشف نظمي هذه الزاوية ، فيذكر لنا ماقاسته اسرته من الحاجة حينا من الدهر . وترتب على ذلك ان يمتنع عن تلقي درسه المعتاد . فما كان من الشيخ العظيم الا ان جاء الى والده في البيت .. وكان الفتى قبلا يتلقى درسه في المسجد .. قال للاب :

ـ ما اظنك تأبى ان اكون ضيفك كل يوم ساعة او نحوها .. وعرف الفتى ان الشيخ عازم ان يستمر الدرس بغير مقابل . وان تلطفه شاء له ان يكون هو الساعي الى تلميذه ، صونا لعزته ، وزيادة في مروءته (ص ٢٣ ، ٢٤) ✱

ويتهيأ الدكتور نظمي لوقا لخاتمة « صبي في المسجد » قائلا « .. وفي العاشرة رحل الفتى عن السويس . ولم ير الشيخ بعدها . لكن الشيخ ظل قائما في عقله ونفسه ولسانه .. فقد صاغ الشيخ في الفتى ذلك كله ، وفتح عينيه على احتقار الجاه واحترام العقل وتقديس العدل وشجاعة الرأي » .

وهذا حق .. فقد تعلم نظمي درسا انسانيا كبيرا من الشيخ سيد ، هو الا يفصل بين مثالياته العامة ، وحياته الخاصة . فنراه يتزوج احدى بنات « الذئاب الخاطفة » الذين أمر الواعظ المسيحي كل قبطي «ارثوذكسي»(٥) الا يحيي احدهم في الشارع . ونراه ينكب على دراسة الاسلام واداب العرب . ولكنا لانراه يشهر اسلامه .. لماذا ؟

لان القيمة الانسانية والتاريخية التي نستقيها من نظمي هي اكبر من ان تقول : هذا مسيحي ، وذاك مسلم . فالواقع اننا جميعا ـ سواء ارادت شهادات الميلاد او لم ترد ـ نتنفس نظمنا الاجتماعية ، وحضارتنا الانسانية ، في تطورها وانحلالها ، وفي تقدمها وانتكاسها ، وفي انتصاراتها وهزائمها .

وجميعنا اذن نمارس هذا التطور ونعانيه ، حاكت جلودنا دودة القز في انسلاخ جلدها كلما كبرت او لم تفعل .

ونظمي لوقا ، الذي امتد كيانا مزدهرا للرمز الكبير المعنون باسم « الشيخ سيد » هو نفسه الذي امتد حلقة متطورة « للعقاد » ، وهو نفسه يحمل الامانة لاجيالنا القادمة .

لقد مر هذا النموذج البشري في خط سيرنا الكفاحي الطويل، وانصهرت تجربته الانسانية في بوتقة تاريخنا ، واظهرت لنا معدن جوهرنا النفيس.

والقيمة الانسانية لا توتنا اذا وعينا الغاية المباشرة من وراء التعاريش الانساني بين الفكريات المتصارعة . فلا شيء يأخذ مكانه في التاريخ عبثا . وما علينا الا ان نؤمن بان المجتمع ـ بكافة موضعاته المادية والاجتماعية ـ هو القاعدة الفسيحة لكافة المثل والقيم والفكر . واذا كان المجتمع البشري في تطور دائب ، فلنفسح صدورنا اذن لكل تغير يطرأ على عقولنا وقلوبنا .

القاهرة — غالي شكري

دار الاداب تقدم

الطبعة الثانية من

الديوان الرائع للشاعرة

نازك الملائكة

يصدر هذا الشهر

٥ ـ كلمة يونانية معناها « مستقيم الرأي » والكنيسة الارثوذكسية تسمى التقليدية .